نظرية النَّظْم لعبد القاهر الجرجاني

« واعلم أنّك إذا رجعتَ إلى نفسك، علِمتَ علْمًا لا يعترضُه الشك أنْ لا نظم في الكلِم ولا ترتيب حتى يعْلُق بعضها ببعض ويُبْنَى بعضها على بعض وتجعلَ هـذه بسببٍ من تلك، هذا مالا يجهله عاقل ولا يخفى على أحدٍ من الناس » ع.ق.ج: دلائل الإعجاز 55

نظرية النظم نظرية تراثية تُنسب لعبد القاهر الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار471 - 400هـ)، وهي ذات شهرة واسعة استهوتْ كثيرا من عشاق التّراث العربي، ولكنها تعرضتْ للنقد من قبل بعض الذين استهوتهم الحضارة والثقافة الغربية، فاعتبروها قضيةً مُتَجَاوزة، وهناك بطبيعة الحال من كان مُعتدِلً، حاول تقديم النّظرية في إطارها وبحجمها

نشأت نظرية النظم في ضوء علوم الفقه والتفسير، فلم يكن البحث اللغوي جاريا من أجل اللغة في حد ذاتها بقدر ماكان الهدف بيان الإعجاز في القرآن الكريم، إذ القرآن هو النموذج وهو المقياس وهو النسق الأكبر، وبالإضافة إلى ذلك فاللغة العربية لها نظامها ولها قوتها حتى قبل نزول القرآن الكريم، وإذا كان الجرجاني هو صاحب النظرية فما هي أصولها في الفكر اللغوي والبلاغي العربي

يذكر أحمد مطلوب أنّ هناك نصًّا يرجع إلى ابن المقفع يشير فيه إلى صياغة الكلام جاء فيه: « **فإذا خرج النّاس من أنْ يكون لهم عمل، وأن يقولوا قولا بديعا فلْيَعْلَم الواصفون المخْبِرُون أن أحدَهم وإن أحسن وأبلغ ليس زائدًا على أن يكون كصاحب فُصُوصٍ وجد ياقوتًا وزبرجدا ومرجانا فنظمه قلائد وسموطا وأكاليل، ووضع كل فص موضعه، وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيد بذلك حسنا فسمي بذلك صائغا رقيقا**»[1]هذه مقارنة بين صياغة الأحجار الكريمة والصياغة اللغوية، والملاحظ هنا عدم استخدام لفظة النَّظم وكل ما في الأمر هو التركيب، وضم المفردات إلى بعضها في سلك أوعقد ينظمها بطريقة معينة. ومن الجهود المعتبرة الممهدة لنظرية النظم كتاب النحو لسيبويه. كذلك من المحطات التي لابد من الوقوف عندها قضية اللفظ والمعنى التي كانت مطروحة على الساحة النقدية العربية والتي لا يمكن ونحن نوردها سوى الإشارة إلى المقولة الشهيرة الذائعة الصيت للجاحظ، الواردة في كتاب الحيوان والتي يقول فيها «**إنّ المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير**»[2] هذه المقولة تضعنا في الصورة التي كانتْ قبل عبد القاهر الجرجاني، فقد كان هناك شبه انقسام

1- أحمد مطلوب: أساليب بلاغية، الفصاحة -البلاغة -المعاني، وكالة المطبوعات، الكويت1980 ص68.

2- الجاحظ: الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط2/ 1965، ج3-ص 131-132.

بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى، ويبدو بطبيعة الحال أن الجاحظ كان من أنصار اللفظ، فهو عربي أصيل، واللغة عنده طبيعة تجري بالسليقة، خلافا لبعض الأجانب الذين دخلوا في الإسلام وتعلموا العربية، فهم يهتمون بالمعاني. هذه القضية الخِلافية ستكون ممهِدة لنظرية النظم التي ستنظر إلى القضية نظرة أخرى، وإذن، فإذا اعتبرنا مقولة الجاحظ ومن سار في فلكه تمهيدا لنظرية النظم فإن هذا تمهيد بالسّلب وليس بالإيجاب أي أن عبد القاهر سيكون موقفه موقف الذي يرد على الجاحظ.

موقف الخطابي (أحمد بن محمد بن ابراهيم م 388هـ) يورد قولا عن إعجاز القرآن الكريم جاء فيه « **إنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور ثلاثة ... لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم**»[3] فهو هنا يتكلم عن اللفظ والمعنى والنظم الرابط، وقد أُعجب الدكتور عبد العزيز حمودة أيّما إعجاب بما ورد في هذا القول وعبر بقوله « **إننا لانملك إلا أن نقف أمام هذا النص في عجب وإعجابٍ شديدين، فهذا نص عربي قديم يتحدث عن اللغة كنظام للعلامات**»[4] نحن في المقولة التي أوردها الخطابي نجد لفظة نظم صريحة واضحة، ولكن التقسيم الثنائي للفظ والمعنى لا يزال بيّنا وإذن فلنمض لنجد رأي عبد الجبار القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد م 415هـ « **اعلم أن الفصاحة لاتظهر في الكلام إلا بالضم على طريقة مخصوصة**»[5] هذه العبارة تقترب أكثر من نظرية النظم للجرجاني ويبقى للجرجاني فضل الصياغة والشرح والأمثلة، لكن الفكرة تبدو قريبة كل القرب بين الرجلين.

نظرية النظم للجرجاني

وردت نظرية الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز وكتاب أسرار البلاغة يقول الجرجاني بعد حديثه عن أهمية وفضل العلم: «**وهل نجد أحدًا يقول، هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانَها من النّظم وحسنَ ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خِلافه، قَلِقَةٌ ونابية، ومستَكْرَهَةٌ إلا وغرضهم عن أن يعبروا بالتّمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبوّ عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تُلِق بالثّانيّة في معناها، وأن السَّابقة لم تصلح أن تكون لِفْقًا للتالية في مؤدّاها؟**» [6] هذا النّص وغيره من النصوص في كتاب دلائل الإعجاز يوضح تفاصيل نظرية النظم عند الجرجاني. جاء في مقالة للدكتور عمر بوقمرة بعنوان أسس نظرية النظم في الدرس اللغوي الحديث أن نظرية النظم تقوم على الأسس الآتية:

3- أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني؛ بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، 1973ص 35

2-عبد العزيز حموده: المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 2001 ص33

5- القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق أمين الخولي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ج16 ص 199

6-عبد القاهرالجرجاني: كتاب دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه أبوفهر محمود محمد شاكر. نسخة الكترونية ص 45

أ- نظم المعاني في النفس ثم نطق الألفاظ حذوها

ب- التعلق النحوي

ج- أساس تخير الموقع.

د - معاني النحو[7]

- نظم المعاني في النفس:

من البديهي أن النظم قبل أن يكون نظما للألفاظ هو تصور للمعاني، وفي ذلك قال الجرجاني: «**اللفظ تبع للمعنى في النّظم، وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر**» [8] ويؤكد الجرجاني على مايلي:

- العبرة بموقع الكلمة في الجملة لا بالكلمة وحدها فمقياس التفاضل هو حسن التجاور والملاءمة
- التغيير في التركيب يغير المعنى، يضرب مثلا عن ذلك ب زيد المنطلق هذه الجملة تفيد أن الانطلاق تم وعرف، لكن لم يُعْرَف من المنطلق فتخبرنا الجملة بزيد أما الانطلاق فنحن نعلمه. أما المنطلق زيد فهنا تركز الجملة على الانطلاق في حد ذاته.
- الاهتمام بقواعد النحو في توضيح المعنى، ويَعْتَبِر الصدود عن النّحو وعدم تَعَلُّمِه عائقا عن فهم كتاب الله والاقتراب من سر إعجازه، لدرجة أن الابتعاد عن دراسة النحو ابتعاد عن القرآن، ففضل النحو كبير، حيث إن الألفاظ تبقى مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب فاتحًا لها، والأغراض كامنة حتى يكون النحو مستخرجا لها فالنحو هو المعيار الذي لايتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يُرجع إليه لا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه، وإلا من غالط في الحقائق نفسه.

ويشكل المسند والمسند إليه الأساس في بناء الجملة، وما يأتي بعد ذلك يتعلق بالإسناد ويرتبط به لتوضيح الفكرة وزيادة المعنى أو ضبطه وتحديده. لدينا الجملة الآتية: يعبد الإنسان العاقل خالق الكون[9]

7-عمر بوقمرة: " أسس نظرية النّظم في الدرس اللغوي الحديث" مجلة جسور المعرفة، مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب بجامعة الشلف ع 10 جوان 2017 ص ص172-183

8 - عبد القاهرالجرجاني: السابق، ص56

9- سناء حميد البياتي: قواعد النحو العربي، في ضوء نظرية النّظم، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، 2003 ص23

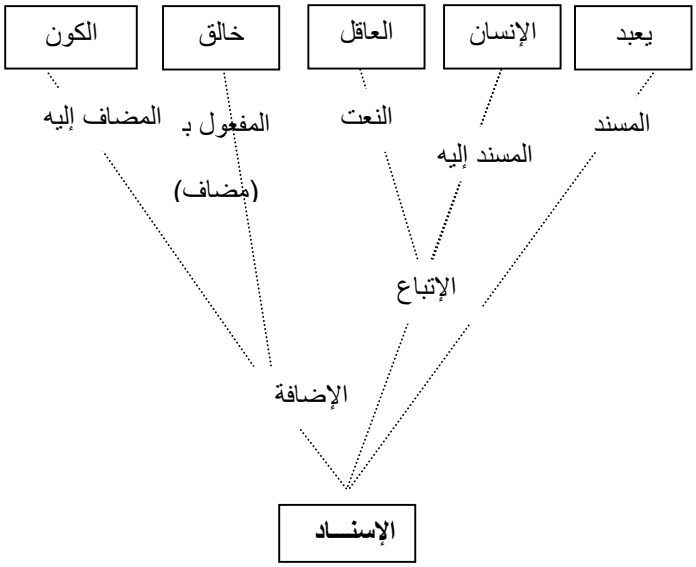

هذه الجملة " يعبد الإنسان العاقل خالق الكون" قبل النطق بها كانت فكرة أو معنىً ذهنيا، وفي النظم يتم تعليق الكَلِمِ بعضها ببعض، وتحديد العلاقات فيما بينها، هنا يتم الربط بين يعبد والانسان بواسطة الإسناد، والاسناد هو الأساس في بناء الجملة. هنا أسندنَا فعل العبادة للإنسان العاقل فالإنسان مسند إليه ويعبد مسند، فالعملية الذهنية التي ربطت العبادة بالإنسان هي الإسناد، وإذن فلدينا العناصر الآتية: المسند إليه أو المتحدث عنه، والمسند، والإسناد، وهو المعنى المدرك الذي يربط المسند بالمسند إليه، ثم نجد التأكيد في نعت العاقل والتخصيص المتمثل في المفعول به خالق والإضافة في كلمة الكون، وهذه المعاني النحوية.

ونظرة عبد القاهر للنحو ليست نظرة ميكانيكية، بل هي مرتبطة بالمعنى، يقول الدكتور محمد مندور عن توظيف عبد القاهر الجرجاني للنحو « **لا يقف بالنَّحو عند الحُكْم في الصحة والخطإ، بل يعدُوه إلى تعليل الجودة وعدمها حتّى ليُدْخِل في ذلك أشياء استقر فيما بعد أن يجعلوها من المعاني**»[10] وتلك طبيعة النّحو كما ورد في مهده ولدَى رُوَّادِه، يقول محمد العابد الجابري عن النحو وعن كتاب سيبويه تحديد « فإن النحو العربي كما نقرأه في مرجعه الأول " الكتاب لسيبويه ليس مجرد قواعد لتعليم النطق السليم والكتابة الصحيحة باللغة العربية، بل هو أكثر من ذلك " قوانين" للفكر داخل هذه اللغة، وبعبارة بعض النّحاة القدماء: النحو منطق العربية وهذا ماكان يعيه تمام الوعي سائر البيانيين إذ كانوا يعدون كتاب سيبويه كتابا في علم العربية نحواً ولغة وبلاغة ومنطقا؛ كتابا يمّكن من استوعبه من الإمساك بمفاصل

10- محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، ص 337.

العلوم البيانية كلها بما في ذلك الفقه، يذكر أبو اسحاق الشاطبي م790هـ أن الجرمي الفقيه قال: أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس من كتاب سيبويه 148هـ 180 - هـ" [11]، يورد الجرجاني الأبيات الآتية للبحتري:

هــو المرْءُ أبدتْ له الحادثا ∴ تُ عزْما وَشِيكًا ورأيًا صليبا

تَنَــقَّلَ في خُلُقَيْ سُـــــؤْدُدٍ ∴ سماحًا مُرَجَى وبأسًا مَهِـيبا

فكالسّيف إنْ جئتَه صارِخًا ∴ وكالبحر إنْ جئته مُسْـتَثِيبا

ويعلق على الأبيات قائلا« **فإذا رأيتها قد راقتك، وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازً في نفسك، فعد فانظر في السّبب، واستقص في النّظر، فإنك تعلم ضرورة أنْ ليس إلا أنّه قدم وأخر، وعرف ونكّر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرّر، وتوخي على الجملة وجهًا من الوجوه التي يقتضيها علم النّحو، فأصاب في ذلك كله، ثم لطف موضع صوابه، وأَتى مأْتًى يوجب الفضيلة. أفلا ترى أنّ أول شيء يروقك منه قوله:" هو المرء أبدتْ له الحادِثات" ثم قوله: " تنقل في خُلُقي سؤدد"بتنكير السؤدد وإضافة الخلقين له، ثم قوله كالسيف، ثم تكريره الكاف في قوله وكالبحر، ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه، ثم أن أخرج من كل واحد من الشّرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله صارخا هنا ومستثيبا هناك؟ لا ترى حُسْنا تنسبه إلى النّظم ليس سببه ماعددتُ أو ما هو في حكم ما عددتُ فاعرف ذلك»** [12] فنلاحظ من خلال القول السابق اهتمام الجرجاني بالقضايا النحوية المتمثلة هنا في التقديم والتأخير-التعريف والتنكير-الحذف والإضمار-التكرار...إلى غير ذلك من القضايا النحوية الممزوجة بالذوق الجمالي الذي يتميز به.

- بناء نظرية النظم باستخدام الأدلة والحجج والأمثلة التطبيقية، إذ لا يكفي القول المجرد أن النظم يتعلق بعلاقة الكلمة داخل الجملة، هذا لا يوضح القضية، ولذلك فهو يؤيد من يطالب بالأمثلة والحجج يقول « **صحيح كما قلتم... ولا يكفي أن تقولوا:" إنه خصوصية في كيفية النّظم وطريقة مخصوصة في نسق الكلم بعضها ببعض" حتى تصفوا تلك الخصوصية وتُبَيّنُوها وتذكروا لها أمثلة وتقولوا مثل كِيتَ وكيت، كما يذكر لك من تَسْتَوْصِفُه عمل الديباج المنقش ما تعلم به وجه دقة الصنعة أو يعمله بين يديك حتى ترى عيَانًا كيف تذهب تلك الخيوط وتجيء، وماذا يذهب منها طولا وماذا يذهب منها عَرْضًا، وبم يبدأ وبم يُثَنِّي وبم يثلث، وتبصر من الحساب الدقيق ومن عجيب تصرف اليد ما تعلم معه مكان الحذق**

11-محمد عابد الجابري: اللفظ والمعنى في البيان العربي، مجلة فصول، مج 6ع1، 1985 ص 23

12- عبد القاهرالجرجاني: كتاب دلائل الإعجاز، ص86

وموضع الأستاذية» [13] وهو الأمر الذي اعتمده المؤلف في كتابه والذي ليس من اليسير تطبيقه، فهو لم ينظر إلى النحو تلك النظرة الإعرابية من رفع ونصب وجر، بل هو موزع بين المعنى والبلاغة والنظرة الجمالية التي ليست في متناول كل المختصين فضلا عن غيرهم.

نقد النظرية

من الذين ثمنوا نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني الناقد المصري الشهير محمد مندور ضمن كتابه " النقد المنهجي عند العرب " فقد قال عن الجرجاني إن مذهبه « **يشهد لصاحبه بعبقرية لغوية منقطعة النّظير»** [14]، كما كان حمودة عبد العزيز من الذين ثمنوا عاليا جهود عبد القاهر الجرجاني في هذه النظرية اللغوية النقدية، ومع الاعتراف بجهود السابقين له لصياغة معالم هذه النظرية فإن اسمه يبقى مرتبطا بالنظم ونظرية النظم تبقى مرتبطة به يقول: « **عند الحديث عن نظرية النظم فإن اسم عبد القاهر أول وآخر اسم يرد في الذهن»**[15] ويقول أيضا: «**لا أظن أننا بحاجة إلى إعادة تأكيد أن العقل العربي قد عكف منذ القرن الثالث الهجري وحتى نهاية القرن الخامس على تطوير نظرية لغوية لا تختلف في مكوناتها كثيرا عن مفردات علم اللغويات الحديث الذي أسس له "فرديناند دي سوسير" في بداية القرن العشرين. والاختلافات-وهي قائمة بالقطع-بين علم اللغة العربي وعلم اللغة الأوربي الحديث خلافات منطقية، فقد طور العرب مدرستهم اللغوية قبل الغرب بعشرة قرون على الأقل. وإذا كان لابد من إلقاء تَبِعَةِ اللَّوْم على أحد، فلا نلوم إلا أنفسنا، فقد استطاع العقل الغربي في ثمانين عامًا على أكثر تقدير أن يُطور علم اللغة من صورته البسيطة كما قدمه "سوسير" إلى مذاهب ومدارس يتوه الدارس المتخصص في سراديبها بل متاهاتها. بينما تكاسَلْنَا نحن، لمدة عشرة قرون على الأقل في رعاية جنين لغوي كان من الممكن أن يكبر ويصبح عملاقا ومُنْشئا لأجيال من المذاهب اللّغوية.»** [16]

وبالرغم من عظمة هذه النظرية، فإن ما يُسجل عليها أنها لم تتخط الجملة إلى الخطاب، ولم تهتم بتناول العمل كاملا شعرا أو نثرا، الأمرالذي كان من الممكن أن يقوم به من جاء بعد الجرجاني، وهو أمر فيما نعتقد لم يحدث وبقيت الأمور تُرَاوح مكانَها أي تعيش على ما قاله الجرجاني إلى أن تطورت الدراسات اللغوية في الغرب وعلى يد "دوسوسير" تحديدا، فالتفت الدارسون لتراثهم يثمّنون ويحيون ما قاله من قبل الجرجاني، وتلك هي طريقتنا في التعامل مع البحث العلمي ومع التراث

13-عبد القاهر الجرجاني: كتاب دلائل الإعجاز ص35

14-عبد القاهر الجرجاني: نفسه ص35

15- عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة، ص 247

16- عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة، ص 243